الدكتور واصف أبو الشباب
أستاذ محاضر في الجامعة اللبنانية
وجامعة بيروت العربية

شخصية الفلسطيني

في الشعر الفلسطيني المعاصر

دار العودة - بيروت

رجا سمرين :

من الشعراء الذين أنجبتهم النكبة ، ولد في السابع من آذار (مارس) عام ١٩٢٩ في قرية « قالونيا » قضاء القدس ، وهي الآن ضمن القسم المحتل من فلسطين (قبل عام ١٩٦٧) .

وقد رحل الى القاهرة عام ١٩٤٨ للدراسة وذلك قبل حدوث النكبة بثلاث شهور وقد تخرج في كلية اللغة العربية بالقاهرة عام ١٩٥٥ .

بدأ النظم خلال وجوده في مصر للدراسة مدة ثمانية أعوام وقد نشر ديوان شعر صغير الحجم عام١٩٦٠ ، وبعد ذلك توقف عن نشر انتاجه حتى نهاية عام ١٩٧٤ ، وقد علمت منه بأنه يرغب في اضافة مجموعة من القصائد الجديدة الى ديوانه القديم « الضائعون » ثم يعيد نشره من جديد ، وهو ينتظر الظروف الملائمة لتحقيق ذلك .

يعمل في سلك التدريس منذ عام ١٩٥٥ ، وهو يقيم حاليا في دولة الكويت ويعمل موجها للغة العربية ، وقد نال مؤخرا شهادة « العالمية » من الأزهر درجة الدكتوراه عام ١٩٧٢ .

مؤلفاته :

له ديوان واحد بعنوان « الضائعون » عمان ١٩٦٠ .

أ ـ (مقابلة شخصية مع الشاعر في ١٧/٧/ ١٩٧٤) .

ب ـ (ديوان الشاعر « الضائعون » ـ عمان ١٩٦٠) .

تنوعها الغني في الدرجات والظلال والألوان »[1] . ولكن مهما التزم الشاعر الكلاسيكي باللهجة الخطابية المصطنعة ، ومهما أجهد نفسه ، فلن يرتفع بشعره الى المستوى المقبول « . . . . وذلك لأن الرنين الخطابي مهما بلغت قوته لا يمكن أن يسمو بالشعر »[2] .

ومما ساعد الشعراء الفلسطنيين الكلاسيكيين في التوجه بقصائدهم وجهة خطابية ، المرحلة النضالة التي يمر بها الشعب الفلسطيني ، فقد لجأ هؤلاء الشعراء الى الألفاظ المدوية المجلجلة ، لتعزيز الموقف الخطابي الذي يقفه الشاعر ، والعدناني من رواد هذا النمط ، فهو يقول في قصيدة بعنوان « صرخة » :

صبّوا على العادي النقم ... وابنوا الضحايا كالهرم
واقضوا على الصِّل الذي ... يفح في جوف الدسم
وقلدوا أجيادكم ... عقد العقيق والعنم
. . . . . .
يا انكليز ! حسبكم ... من الرزايا ما دهم
فالشر من صداقة اليهود ... لو تدرون جم
ما في فلسطين لهم ... يوم الوغى قيد قدم
. . . . . .
يا عرب شبوها لنا ... حربا تناهي في العظم
شعواء تجتاح العدا ... عملاقهم مع القزم
واستدفقوا جيشا يغطي ... البيد طرا والأكم[3]
الخ . . .

فنحن نلاحظ الشاعر هنا توسل في نهجه الخطابي النداء ، والأمر ، والتحذير ، والنفي ، كي يصل الى هدفه في مخاطبة الجمهور ، ولكن الذي يضيّع قضية الشاعر هنا الأصوات الطنانة ، والمعاني المتكررة ، والتي سمعناها كثيرا .

والشاعر رجا سمرين[4] يسلك في معظم ديوانه (الضائعون) نفس السبيل وخاصة في قصائده السياسية :

---

(١) قضية الشعر الجديد ـ د . محمد النويهي ١٩٦٤ المطبعة العالمية ـ معهد الدراسات ـ ص ٤٢ .

(٢) في الميزان الجديد ـ د . محمد مندور ـ مكتبة نهضة مصر بالفجالة ط ٣ ص ٩٩ .

(٣) ديوان : اللهيب ـ للشاعر محمد العدناني ـ المكتبة العصرية ـ صيدا ـ بيروت ص ٨ ـ ٢١ .

(٤) أنظر التعريف بالشعراء ـ ص (٢٤٣) .

ويهتف صارخا في كل وقت ... علام النوم يا هذا علاما ؟
ألم تغضبك أهات الثكالى ... ألم توقظك أنات اليتامى
أليس الموت خيرا من حياة ... بها تلقى المجاعة والأواما
أتنسى عيشك الزاهي وعهدا ... جميلا ما تود له انصراما

. . . . . .

فهيا ثر وأعلنها ضروسا ... تحيل ديارهم فيها ركاما
واشهد هذه الدنيا بأنا ... أباة قد أبينا أن نساما[1]

الشاعر في هذه الأبيات ، نموذج لكل الشعراء الفلسطينيين الكلاسيكيين ، وفي طليعتهم العدناني هارون هاشم رشيد وعلي هاشم رشيد وغيرهم ، وذلك في اللهجة الخطابية ، والألفاظ المدوية الصاخبة ، وحتى في اختيار القافية والروي ، حيث نجد الشاعر وقد توخى القوة والشدة الى جانب النغم الصارخ المرتفع ، وهو لا ينسى الجانب العاطفي فيلجأ اليه للتأثير على السامع ، متوسلا الاندفاع الوطني المتمثل في جموع الشعب الفلسطيني ، ولكن اعتماد الشاعر وغيره من الشعراء الكلاسيكيين الفلسطينيين على الخطابة أفقد معظم قصائدهم الوطنية الانطباع الجيد والأثر العميق .

لقد كثرت المناسبات الوطنية وغيرها من المناسبات المؤلمة التي عاشها الشعب الفلسطيني ، وقد دأب معظم الشعراء الكلاسيكيين على النظم في هذه المناسبات وفي طليعة هؤلاء هارون هاشم رشيد حيث كان يعمل مسئولا أعلاميا للمنظمة في قطاع غزة ، فعمد الى النظم في كل مناسبة ، الأمر الذي طبع شعره بالبساطة ، وبالصبغة الوطنية في نفس الوقت ، « وهذه البساطة الآسرة في الشعور والتعبير معا ، وهذه الدعوة القوية الزاخرة بالأمل ، الجياشة بالحياة ـ انما تنبعان من شاعرية موهوبة تستمد فنها الصافي من صدق الأحساس والأخلاص في الانفعال والحياة الحقيقية في التجربة ولكن لهاتين الميزتين آفتين ـ حينما تقتصران على الظاهر الشكلي وتفتقدان النبع الذي تستمدان منه جوهرهما الغني وقديما قيل : لكل شيء آفة من جنسه « فالبساطة » قد تصبح سطحية وضحالة وألفاظا متجاورة هامدة لا نبض فيها ولا معنى لها ، والدعوة القوية المفعمة بالوطنية قد تنقلب الى خطابية نثرية أشبه بالمقالة الصحفية منها بالشعر »[2] .

---

(١) ديوان : الضائعون ـ للشاعر رجا سمرين ـ مطابع الشركة الصناعية ـ عمان ـ آذار ١٩٦٠ ط ١ ـ ص ١٨ ـ ٢٠ .

(٢) محاضرات في الشعر الحديث في فلسطين والأردن ـ د . ناصر الدين الأسد ، معهد الدراسات العربية العالية . جامعة الدول العربية ـ ص ٢٨١ .

لا نريد أن نسترسل في ذكر الأمثلة حول تنوع القافية ، والتصرف بشكل ضيق في توزيع عدد التفعيلات على الأشطر ، وهذا النوع من النظم قد يخفف وطأة القافية الموحدة وطول الوزن ، ولكن يبقى في حدود منتظمة ، وقد سبق النظم عليها بشكل واسع في الأندلس ، وقد نعت البعض هذا النوع من النظم (كالرقص في السلاسل) اذ يبقى الشاعر مقيدا في الأسس والقواعد الموضوعة للوزن والقافية الى حد كبير .

وموسيقى الشعر لا تكتمل بالوزن والقافية وحدهما ، اذ لا بد أن يتوفر في الألفاظ مفردة ومجتمعة ، التألف بين الحروف في اللفظة المفردة ، والانسجام الموسيقي بين الكلمات مجتمعة في جمل تامة المعنى ، وسليمة من حيث البناء اللغوي .

فلا بد أن تتوافر شروط الفصاحة في اللفظة عند البلاغيين ، ولا بد أن تتوفر شروط الفصاحة والبلاغة في الجملة أيضا ، لتكون متفقة مع النسق العام للنهج التقليدي . ولا شك أن التنافر بين الحروف في اللفظة الواحدة وبين الكلمات في الجملة الواحدة مع فصاحة هذه الكلمات منفردة ، يفقد النص الشعري موسيقاه . وقد حاول أصحاب النمط التقليدي في الشعر الفلسطيني التقيد بشروط فصاحة الكلمة وبلاغة الكلام ، ومعظمهم سقطوا في هفوات عدة أفقدت منظومهم الكثير من أنغامه فالشاعر العدناني تمسك بالألفاظ القديمة والغريبة ظنا منه بأنه يحافظ بذلك على جزالة اللفظة وعراقتها ، ومعظم قصائده في ديوان اللهيب ، ذيلها بتوضيح الكثير من ألفاظه التي استخدمها في قصائده ، وقد نجد بعض الأبيات التي تنافرت كلماتها مثل :

سنجتاح الصهاينة كالأواذي ونفثؤهم متى ثاروا حبابا[1]

وكذلك الشاعر رجا سمرين مع أنه اعتمد كثيرا على اللفظة الدارجة والأسلوب الصحافي ، الا أنه يجمع الى ذلك بعض التنافر بين الكلمات مما يعرض شعره لآفتين : الأسفاف الى اللغة الدارجة (العامية) والأسلوب التقريري النثري الصحافي - ثم التنافر بين الألفاظ :

وصمة أنت في جبين الدهور يا خياما في القفر مثل القبور

وبنوه يحيون أشهى حياة ونساه يلبسن نسج الحرير[2]

---

(١) ديوان : اللهيب : العدناني - المطبعة العصرية - صيدا - بيروت ص ١٢١ .

(٢) ديوان : الضائمون : رجا سمرين - مطابع الشركة الصناعية - عمان ط ١ سنة ١٩٦٠ ص ٢٢ .

ينطبق على الشاعر علي هاشم رشيد نفس الحكم حيث يغلب على شعره الطابع النثري ، وتعم فيها الألفاظ البسيطة الدارجة مما يفقد انتاجه الشعري ايقاعه الموسيقي .

ولكن وجود الألفاظ الصاخبة الطنانة عند الشاعر العدناني والى حد ما العبوشي ، والألفاظ الدارجة الشبيهة بلغة الصحافة عند الشاعر رجا سمرين وعلي هاشم رشيد ، يقابلها عند الشاعر عبد الكريم الكرمي (أبو سلمى) وحنا أبو حنا ، ألفاظ ذات جرس موسيقي مؤتلف وألفاظ جزلة لا ينبو بها السمع ولا تثقل على اللسان ، ويمتاز انتاج كل منهما بأنغامه الموسيقية التي ترتفع دون ضجيج ، وتنسجم بهدوء دون هبوط الى النثرية .